ارادة الله هى العليا

قد يريد أحد من الناس بك سوءا ، وقد ينصب لك الأشراك ؛ ويضع الفخاخ ، ويرصد حركاتك ويطاردك ، حتى تظن ، أو تعتقد أنه بالغ منك مايريد ؛ وأن ليس بينه وبين إربه ، إلا أن ينقض عليك ، حيث لامستقدم لك ولا مستأخر ، وحتى يظن هو ، أو يعتقد أن الزمان أمكنه منك . ثم يريد أن ينفذ خطته ؛ فلا يلبث أن يرى نفسه ، وقد آمنت بعد خوف ، وسكنت بعد اضطراب . ثم تبحث ، ويبحث هو أيضا كيف كانت النجاة ؟ ومن أين أتى الخلاص ؟ وقد كانت الوسيلة محبوكة الأطراف محكمة . تبحث أنت ، ويبحث هو عن السبب ، فتهتديان ؛ أولا تهتديان ، ولكن الذى يكون هو أنك قد نجوت ، وأنه هو فشل فى تدبيره

وقد يريد أحد من الناس أن ينفعك ، فتتوسل بكل الوسائل ، وتقوم بشتى الشوافع ، وقد يريد من كانت إليه الوسيلة أن ينفعك حقا ، وقد يكون الأمر بيده ، أو بيد من يثق به ، ويعده كنفسه ، حتى ترى أنت ، ويرى من يعرف أمرك ، أن غرضك على حبل الذراع ، وأنه صار منك قاب قوسين أو أدنى . وقد يحمل ذلك بعض الأصحاب على تهنئتك ، وقد ترتب أنت على هذه النتائج . ثم فى اللحظة الأخيرة قد يظهر شىء لم يكن فى الحسبان ، فاذا الأمل سراب ، وإذا كل ماكان إن هو إلا أحلام يقظة .

بماذا نفسر ذلك ؟ وكيف تعبر تلك الرؤى ؟ لاتفسير له ، ولا عبر ، إلا أننا أردنا شيئا ، ورتبنا الأمور على حسب إرادتنا ، ونسينا أمرا آخر هو مرجع كل شىء . ذلك الأمر الآخر هو إرادة الله . فنحن نريد ، والله تعالى يريد ، وما يريد الله هو الذى يكون ، وهو الذى يقع . أما ما نريده نحن ، فانما وافق ما يريده الله نفذ وتحقق ، وإلا تفذت إرادة الله ، وبطل سعينا ، وفشل تدبيرنا .

ذكرت إحدى الصحف أن جماعة من الفتاك استؤجروا لقتل شخص ، فترقبوه ، ثم خرجوا عليه منفردا ، فألقى بنفسه فى أحضان عدو آخر ، هو الماء ، فأطاق عليه الأعداء اثنى عشرة رصاصة ولكن واحدة لم تصبه ، ونجا مع ما هو معروف عن أمثال هؤلاء من

تسديد الرمي وإصابة المقاتل ، فهؤلاء أرادوا شيئا ؛ وأراد الله شيئا آخر ، فنفذ تدبير الله وبطل تدبيرهم .

وكلنا نذكر كيف اعتزم عمرو بن بكر التميمي قتل عمرو بن العاص كما اعتزم آخران قتل علي ومعاوية لما أصاب المسلمين بسببهم . أراد عمرو قتل عمرو ، وأراد الله لابن العاص إتساع الأجل ؛ فأمرضه ليلة العزم على قتله ، وناب عنه في صلاة الفجر بالمسلمين رئيس شرطته خارجة ابن حذافة ، فطعنه الرجل فقتله ، فقيل : أراد عمرو وأراد الله خارجة .

وأقرب مثل أسوقه إلى القراء ، وهو الذي أوحى إلى كتابة هذا الموضوع ، ذلك الرجل الذي ذكرت الصحف قصته ، وهي أنه قتل زوجه ، فقبض عليه ، وفر من السجن إلى الشام ، وقضى فيها قراب أربعة وعشرين عاماً ، ثم رأى أن يعود لمصر ؛ فقبض عليه ، وعرف أنه فلان صاحب حادثة كذا ، فهل رأى الناس أبلغ من هذا في الدلالة على نفاذ إرادة الله دون سواها ؟ رجل يقبض عليه مجترما جريمة قتل زوجه ، وإيقاد النار بها ولما تلفظ نفسها الأخير ، فيقاد إلى السجن ، ويشهد عليه شهود ثمانية ، كلهم شهود رؤية ، ويقدم للمحاكمة وما يشك أحد في أن أيامه محدودة ، وأنفاسه الباقية معدودة ، وأي شيء ينجيه من حبل المشنقة ، والسلاسل في يديه ، والأبواب مغلقة دونه ، والرصد ليل نهار يرقبونه ، ثبت فيه شانئوه ، وذرف عليه الدمع محبوه ، وأيقن هو في نفسه بالحكم عليه بالاعدام ، وهل بينه وبين أن يقطع رأسه إلا أن يقول القضاء كلمته ، فترفع الراية السوداء ، ويوضع الحبل في عنقه ، فيكون جثة هامدة ؟ كل هذا تمثله المجرم ، وتمثله له من يعلم قصته ، وهل يكون غير هذا الشخص يقترف جناية القتل ، فيقبض عليه ويداه ملطختان بآثار جريمته ؟ لا يكون غير الشنق . هذا ما كان يقع لمجرم مثله ، وهذا ما كان يتوقعه له الناس ؛ ولكن لله إرادة غير إرادة الناس ، وله مشيئة وتقدير غير مشيئتهم وتقديرهم .

أراد الناس لهذا الجاني الموت العاجل ، وما شكوا في أنه ملاقيه ، بعد القبض عليه ، وبعد سجنه . وأراد الله فسحة الأجل ، فكان مامهد له أسباب الفرار ثم لم تقع عليه عين أحد من العيون ، ومرت الأيام ، وتوالت الشهور ، وتتابعت السنون حتى كانت أربعا وعشرين ، ونسي الناس في هذه المدة الطويلة حادثة القتل ، وفر القاتل ؛ ثم ماذا ؟ ثم أراد الله — بحسب ماظهر لنا ، وقد يكون مريده غيره — أراد الله القصاص منه ، فساقه مختارا إلى مصر ، فسار تحمله قدماه ، حيث عرفت حقيقته ؛ وكشف أمره وهاهو الآن رهن المحبس ينتظر الموت لنفسه ، وهاهم الناس يرجفون القول فيه . ومن يدرينا ؟ لعله ينجو من الموت ثانية وأخيرا ، فقد زعموا أنه لابد في هذه القضية من سماع الشهود من جديد ؛

وقد لا يكون واحد من الشهود حيا ، وحينئذ تكون قضية الرجل دعوى بغير شهود ، فالحكم عليه وقفه محتملان ، وحفظ القضية وإطلاقه محتملان أيضا . ومرجع الأمر إلى إرادة الله ومشيئته .

فهل بعد هذا يصح لشخص يعتقد فى الله أن يرجو الرجاء كله فى شىء مهما وثق به ؟ أو ييأس اليأس كله من شىء مهما بعد عنه ، وعز عليه ؟ الرجاء المطلق ، لا يفهمهما عاقل ، ولا يأخذ بهما مفكر متبصر ؛ كلاهما تطرف فى التقدير ، وفى كليهما إهمال وترك لتقدير الله ، وليس أضر على الانسان من إهمال جانب الله ، فيه الحول والطول ، وإليه يرجع الأمر كله .

لا معنى إذاً للخوف يستشعره القادم على أمر مادام قد فكر فيه وتدبر ، ومادام يسير إليه ترشده التجارب ، وتهديه الاستشارة الصادقة ، ومم يخاف ؟ أيخاف من شىء كتب عليه وهو لا ينجيه منه الخوف ، ولا ينفعه فيه تدبير ؟ وهو سيصيبه ، وإن احتاط لنفسه ، وإن بالغ فى هذا الاحتياط ؛ « قل لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم » أم يخاف من شىء كتب عليه ، وهو لن يصيبه ، ولو أحاط به الأبالسة ، وتآمرت عليه المردة ؟ لا معنى للخوف فى الحالتين ؛ وليمض الانسان إلى غرضه مضى السهم بعد أن يستعد له ، ويهىء أسبابه ؛ وليذكر قوله تعالى : « قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا » وقوله « وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو ، وإن يردك بخير فلا راد لفضله »

لا معنى للخوف الذى يستذل النفوس ، ويقضى على العزة ، ويفسد الأخلاق ، الذى يحمل ضعفاء الايمان على أن يخالفوا رأيهم ، ويخالفوا ضمائرهم ، ويخالفوا عقائدهم ، لا معنى للخوف الذى يجعل هؤلاء الضعفاء يتخذون بعض الناس أربابا من دون الله ، فتنطق بذلك أفعالهم وإن كانوا بألسنتهم يداهنون ، فلا بلغ هؤلاء غايتهم ، ولا صادفوا إلا خزيا وهوانا وسوء مصير .

وبعد فقد يرى بعض القراء فى هذه الكلمة مايدعو إلى ترك الأمور تسير كما تسير مادامت إرادتنا لا أثر لها فى جانب المقدر ، وهذا مالم أرده ؛ وسيكون تتمة الموضوع فى عدد تال إن شاء الله

حسين يوسف موسى
المدرس بمدرسة الزقازيق الثانوية